الكتاب المقدس زاد المؤمن، الجزء الثاني
المتروبوليت سابا (اسبر)

فما هو هذا الكتاب حقيقةً؟

إنّه، أوّلاً وآخراً، كتاب لاهوت، أيّ كتاب يقدِّم سرّ الله للبشر بطريقة عمليّة لا نظريّة. فالله، الذي لا يُدرَك سرّه، يكشف عن نفسه للبشر شيئاً فشيئاً، وبطريقة تدريجيّة. يرافق الله البشر بطول أناة مذهلة حتّى يفتح أذهانهم إلى فهمه ومعرفته، كما هو، لا كما يظنّونه. وكثيراً ما أخطأوا (وما يزالون) في فهمه، وألصقوا به أهواءهم وتصوّراتهم مشوِّهين صورته وماسخين إيّاها. خطيئة البشر الدائمة أن يجعلوا الله على قياسهم بدلاً من أن يرتفعوا، ليصيروا هم على قياسه. وهكذا ارتضى الله أن يعرِّفهم عن نفسه بنفسه مستعيناً ببعض من دعاهم بشكل خاصّ، ونسمّيهم نحن أنبياء ورسلاً. لكنّه بدأ يكشف عن ذاته عمليّاً عبر مرافقته الجماعة التي اختارها، لكي يكشف شخصه لها. من إبراهيم أبي الآباء وحتّى يسوع المسيح، صبر الله حوالى ثمانية عشر قرناً حتّى تنكشف صورته على حقيقتها أمام البشر، ومع ذلك لايزالون يريدونه على صورتهم ويحمّلونه أفكارهم وتفسيراتهم.

هو كتاب إلهي إذاً، يتدرّج في كشف حقيقة الله باستخدام الأسلوب البشري، الذي يفهمه البشر الذين يكشف لهم عن ذاته. فإذا تحدّث الكتاب عن التاريخ فلكي يُظهر عمل الله فيه، وتالياً صفة هذا الإله. ولنأخذ مثالاً على هذا:

عندما يتواجه شعبان في حرب، كانت آلهة هذين الشعبين تشارك في الحرب مع شعوبها، بحسب مفهوم شعوب الشرق القديمة (أليس هذا ما نراه في تفكير الناس الديني حتّى اليوم؟). فعندما ينتصر شعبٌ يُعتَبَر إلهُه الأقوى فتقدِّم الشعوب المغلوب العبادة له. بينما يقدِّم الشعب الغالب الشكران. على هذا المنوال، كان شعب العهد القديم يظنّ أنّ الله يحارب معه حينما يغلب، لكنّه، وعكس جميع الشعوب القديمة (وهنا العمل الإلهي في الكتاب المقدَّس)، يعتبر أنّ الله إلهه قد تركه بسبب خطايا الشعب، عندما ينكسر في المعركة وينهزم. فعليه، إذاً، أن يتوب ويعود إلى طاعة وصايا إلهه حتّى يغلب ويتحرّر.

هكذا أظهر الله ذاته إلهاً سيّداً للتاريخ. استعمل الله التاريخ مسرحاً، ليكشف عن صفاته عبره. فإذا ما روى الكتاب المقدَّس حدثاً تاريخيّاً، فهو لا يفعل ذلك تأريخيّاً،

بل لاهوتياً، أي لا يبغي أن يسجّل وثيقة تاريخيّة في كيفيّة حصول الحدث، بقدر ما يسجّل نظرةً دينيّة للإله الذي يُروى الحدث التاريخي من أجل التعرّف إليه. فبطل الحدث ليس النبي أو الملك أو القائد، بل الله المستتر وراء ما يحدث في التاريخ، لا بل بالأحرى الذي يحرّك خيوط التاريخ، ويمسكها كلّها بيديه.

وعلى هذا المنوال، يجب أن نقرأ الكتاب المقدّس كرسالة من الله موجهة إلينا شخصياً. رسالة تقول لنا إنّنا محبوبون عنده، وأنّ معنى حياتنا ووجودنا فيه وبه ومعه، وإنّنا مدعوّون إلى إزالة غبار الخطايا المتراكم علينا، من أجل أن نعاين حقيقة الله كما هو.

من اختبر مقدار خطاياه التي تحجبه عن الله، يدرك جيّداً معنى أن يلوّث البشر صورة الله ويشوّهونها. عمل الله المستمر في الكتاب المقدَّس كان أن يكشف عن ذاته باستمرار وفي كلّ مرّة، بالمقدار الذي يستطيع الناس أن يعوه ويدركوه، حتّى "حان ملء الزمان"، وانكشف بكلّيته أمامهم في شخص الابن الوحيد، يسوع المسيح. "والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب" (يو ١: ١٤).

الله لم يتمّم هذا الكشف وحده، بمعزل عن الإنسان. أي لم يكن الله هو الفاعل فقط والإنسان هو المتلقّي فقط. بل احتاج الإنسان إلى النمو في معرفة الله حتّى يستطيع الله أن يكشف عن ذاته أكثر فأكثر. هكذا نشأت سياسة تربوية أرادها الله لأنّها لمصلحة الإنسان. اقتضت سياسة الله هذه رفع سويّة الإنسان الروحيّة تدريجيّاً. حتّى يصير في المستوى الذي يسمح له بمعرفة الله معرفةً حقّ. لم يكن باستطاعة الإنسان الساقط والخاضع للخطيئة والمستعبَد للشيطان والعاجز عن أن يتمتّع بنعمة الله، الإنسان الذي أظلم ذهنه، وانقسم على ذاته وعلى أخيه، وعلى الطبيعة، الذي يحنّ إلى أصله لكنّه لا يعرفه ولا يستطيع الوصول إليه، لم يكن هذا الإنسان قادراً على البدء في السير في الطريق الصحيح. كان الحلّ بيد الله وكانت المبادرة منه.

نداؤه كان إلى إبراهيم أوّلاً. وهكذا عرف إبراهيم إلهاً يعد ويفي بوعوده؛ عندما وعده بحبل سارة. إنّه إله لا يرضى ذبائح بشريّة، بل يطلب عوضاً منها ذبائح حيوانيّة؛ ذبيحة إسحق (تك ٢٢: ١-١٩). إله يختلف عن غيره من الآلهة. يكمن برّ إبراهيم في أمانته لله. لم يغيّر الله في عادات إبراهيم ومفاهيمه الأخلاقيّة كثيراً، اكتفى فقط بأن يكون إلهاً لإبراهيم، وأن يكون إبراهيم أميناً له ولتعاليمه. وهكذا عُرف الله أوّلاً بإله

إبراهيم. ثمّ، ومع نسل إبراهيم، صار إله إبراهيم وإسحق بعد ذلك أُضيف يعقوب. وهكذا عُرف بإله آبائنا.

لم يكن الأمر غريباً عن مفاهيم تلك الأيّام. فلكلّ قبيلة إلهها. ولكلّ عشيرة إلهها. وكثيراً ما كان للعشيرة أكثر من إله. أمّا إله آبائنا، فكان مختلفاً لأنّه لا يقبل إلهاً آخر معه. وهو إله غيور، إله لا شيء يحدّه: لا صنم ولا صورة ولا مكان. إلخ يبادر ويأمر فيُطاع. إله يقيم عهداً مع الإنسان ويبقى وفيّاً لهذا العهد، طالما بادله الإنسان هذا الوفاء. وعندما ينقض الإنسان عهد الله، وكثيراً ما فعل، ويفعل حتّى اليوم، يكون ردّ الله أن يتركه حتّى يتوب ويعود إليه، فيقبله سريعاً ويعود إلى التزاماته. ثمّة هدف تربويّ حتّى في هجران الله للإنسان وقتيّاً. علاقة حيويّة وحيّة كهذه لم يعرفها تاريخ الأديان. إله ينادي وإنسان يستجيب. عهدٌ كثيراً ما يترجرج ويضطرب من جهة الإنسان، ومع ذلك يبقى الله بانتظار أن يُصلح مخلوقه التزامات ذلك العهد، حتّى يتابع المسيرة معه إلى إتمام الخلاص. إله يصبر ألف وثمانمائة سنة على قساوة الإنسان وضيق أفقه وجهله. إله كهذا لم يكن صنيعة إنسان لأنّ البشريّة ما كانت قادرة على التفكير في إله كهذا.